

الشعر كصورة للجمال

للأستاذ نظمي خليل



أظن أن كثيراً من الناس الذين يقرأون الشعر يتساءلون
ألا يوجد في الشعر شيء آخر غير الموسيقى والصور . ما هذا
الجمال الذي نسمي وراءه ؟ ما رسالة الشعراء للعالم ؟ ما معنى
القصيدة ؟ وربما زاد بعضهم فقال : ماذا يملئنا الشعر ؟
فإذا اصطلاح الناس على أن الصور الشعرية يجب أن تدرس
من أجل لذة الاستيعاب نكون قد وصلنا إلى غايقتنا وترك هذه
الأسئلة تجيب عن نفسها .

ولكن هذا القانون السقيم ، قانون الاختيار الذي ظهر
في القرن التاسع عشر وهو المنفعة قد انحرف بالمثل العليا في
الشعر وألزمه أن يؤدي لنا نتائج خاصة وآثارا ملموسة يمكن
للمستوعب إدراكها وتفهيمها .

في الشعر الجيد كثير من الجمال الذي نجده في سائر الفنون
السامية ، ولكنه جمال خفي غامض لا يمكن أن يمرض أو
يشرح ، فلا تكاد الألفاظ تأخذنا إلى ذلك الجو السحري البعيد
حتى نشعر أن وراء النظم نوما من ضوء الأحلام ليس موجوداً
ولكنه سائر أبداً . يولد فينا إحساسات بأشياء غامضة لا يمكن
أن يصبر عنها بالكلمات نفسها بل قد لا يحسها الشاعر نفسه .

ولكننا وإن كنا لا نستطيع الإفصاح عنها لا ترتاب في
وجودها . فهي حقيقة موجودة كالحياة عينها .

أما أولئك الذين يعجزون عن الإحساس بهذه الكتابة
الغامضة أو السرور الخفي التي ينبعث من الموسيقى اللطيفة قد
تكون مشاغل الحياة قد صرفتهم عن ذلك فلبداً إحساسهم وبرد
قلوبهم ، وصاروا يدبلجون في الحياة وهم أبعد الناس عن الإحساس
بها . فاليهودي أو رجل المال مثلاً لا يشعر بها لأنها ليست شيئاً
يباع في الأسواق .

هذه الأسماء التي نحس بهجتها الغامضة نعرفها بأنها شعر

إلا أن النقد لا يستطيع أن يحللها أو يصورها في تعبيرات موسيقية
أو صور . ولكن القلب يفرق أنها شعر لأنه شعر بها .

هذا هو الاختبار الأخير للشعر ؛ وهذه هي وظيفة الفنان
لا يمتيه أمر العقل في قليل أو كثير لأنه لا يقدر موضوعات
ولكن صوراً تبعث فينا إحساسات خاصة ولكنها لا تحمل
معنى يمكن أن يبرر عنه أو يشرح حسب القوانين العقلية .

فإذا فكر القارئ في الموسيقى بدلاً من الشعر لا يصعب
عليه فهم هذا . ولكن من سوء الحظ أننا فصلنا الشعر من
سائر الفنون وكدنا ننسى أن الموسيقى هي ابنة (أبولو)
وليست ابنة (منيرقا) .

فالسؤال الآن : ما ذا يملئنا الشعر لا يلقى إلا في مجتمع قد
جعل الاختبار والعقل فوق كل شيء وغاية كل شيء .

الشعر لا يعلم ولكنه يلهم . فأولئك الذين يريدون أن يعلموا
يجب أن يكون منطقهم واضحاً سليماً ؛ ولكن جوهر الشعر
الأسيل هو ما لا يمكن أن يفهم أو يبرر عنه بحجج العقل والمنطق .
فالشاعر ليس مدرساً ولكنه رسول وكلامه غامض .

قال شيلي : « الشاعر كالبلبل الذي يجلس في الظلام ويصيح
ليبدد وحشة وحدته بأنغامه الشجية ، والمستمعون إليه كأولئك
الذين سحروا بنغم موسيقار متوافق ، فيحسون أنهم قد اهتزوا
وطربوا ولكنهم لا يدركون متى ولماذا ؟ » .

أما الخطأ الشائع وهو أن نعالج القصيدة يمكن أن تأخذ
شكل القوانين والأصول فراجع إلى تلك التجربة الأسيفة المزعجة
وهي شرح الشعر بالنثر أي نثره ، ولكن الشعر لا يمكن أن ينثر
كما لا يمكن أن يترجم دون أن يفقد حياته .

أجل قد يأتي لنا المترجم بقصيدة جديدة لا تقل عن الأولى
جمالاً وروعة كما حدث في ترجمة بوب للإلياذة وقتز جبالد
لرباعيات الخيام ، ولكن يجب أن نعرف أن هذه ليست شرحاً
ولا ترجمة بل هي خلق جديد .

كل ما أخذ في النقد الردي هو أنه يبنى بالموضوع بدلاً
من الشكل .

وقد عاب « ماثيو أرنولد » « دكتور جونسون » لمحاكمته

واحدة للسرور والجمال الخالص .

إن رسالة الفن سر شخصي ليست محدودة المعنى .

فالقصيدة أو الصورة لها معنى خاص لكل فرد . وكل الشروح ليست إلا ظلالاً للحقيقة واحدة ، فعنى الخلق الفنى جميل موجود فى روحه مستقر فى روح صانعه .

فإخبارك الطفل بما يريد معرفته شيء جميل ، ولكن عدم إخبارك إياه قد يكون أجمل وأفضل ؛ فقد حدث أن كان طفل جالساً مع أمه يستمع فقال : « أرى . إني أظن أنى أفهم إذا سكنت هذا عن الشرح » .

قد يكون هذا قانوناً بلا استثناء ، أى أن تبطل الشروح ما دامت لا تزيد فى التمتع والسرور بالكشف عن الجمال الفنى .

فالطفل يستطيع أن يتبين الجمال فى أغاني شوق مثلاً دون أن يعرف شيئاً عن شوق ؛ فإن أساس التمتع هو الموسيقى ، فمن السخريّة أن نحاول أن نلقى على الأطفال شروحاً عن حياة الشاعر قبل أن يتعلموا كيف يحبون الشاعر ويحبون شعره .

كيف يلذ للطفل أن يعرف أن حافظ إبراهيم ولد فى القاهرة ثم تعلم الهندية ثم ذهب إلى السودان ... قبل أن يقرأ أو يسمع أشعاره . أقول يسمع إذ ليس من الضروري أن يقرأ الطفل الشعر ليقتفى على جماله . فقد يسمع القصيدة وهو يجهل معانيها بل يجهل ألفاظها جهلاً تاماً . ومع ذلك تراه يطرب ويحزن تبعاً لموسيقاها :

ولقد قرأت مرة أن أحد الأساتذة الإنجليز جمع حوله بضعة أطفال ثم أخذ ينشد لهم شيئاً من شعر هوميروس الحماسى باللغة الإغريقية فما لبث أن رأى الأطفال يهتزون ويطربون وينسجمون فسألهم عن معنى القصيدة فقالوا إنها وصف لمركبة ؛ ثم قرأ عليهم قصيدة أخرى فظهر عليهم الوجوم والحزن فلما سألهم عما فهموا قالوا إنها رثاء لقتيل .

فإذا كان هذا مبلغ تأثير الموسيقى فى الطفل الذى يجهل اللغة تماماً فأحرى بمدرسينا أن يتركوا أطفالهم يتمتعون بجمال الموسيقى وأن يفهموا الشعر كمسورة للتمتع والجمال .

نظمى خليل

الخطأ على « ليسيداس » (مرتبة ملتن لصديقه كنج) « إن أكبر غلطاته هو ظنه أنه ما من أحد يجد سروراً أو لذة فى قراءة ليسيداس لأن معنى هذه القصيدة ليس حقيقياً وفكرتها قديمة » وقد وقع متيو أرنولد فى نفس الخطأ عندما أعلن حربه على شيللى فى قوله : « بموزة شيء هام فى الشعر لا يمكن أن يشفى منه وهو المادة » .

نريد أن نتحرر من هذا النوع من النقد مادام الشعر كغيره من الفنون الرفيعة عرضه التمتع والسرور العام .

فالشعراء يريدون أن يخلقوا ليسمعوا لا ليفكروا . والنقد وهو المساعد الوحيد للخلق يجب أن يقوم بمحنة لا ليجهلهم يفهمون التعاليم والقواعد ولكن ليربهم الفن ويتركهم يتمتعون به ويقفون على ما فيه من فائدة لأرواحهم لا لمقولهم .

ولقد شرح الألمان شكسبير فخللوا آراءه الدينية وزعزاعه الفلسفية وتعاليمه الدينية والأخلاقية ومبادئه السياسية ، وجعلوا منه وحشاً غليظاً فقالوا إن حلم « ليلة فى منتصف الصيف » خطلة حقيقية .

ومن المحتمل أيضاً أن أغانيه صدرت عن تجربة عملية فقد قال دكتور جنسون وهو قول خاطئ من أسامه « إن شكسبير كان معنى بأن يسر أكثر من أن يعلم ، وأنه كان يكتب بعيداً عن أى غرض أخلاقى » كذلك قال أرمسن « لقد أراد أن يعطينا صوراً وكان جديراً به أن يقدم لنا تعاليم » .

لم يكن أحد من الإنجليز يظن إلى هذا الاختبار حتى جاء به أرنولد من ألمانيا فقال « إن رسائل شيللى ستبقى بعد أشعاره كفنانية » .

ونجد كثيرين يكرهون كيتس ولا سيما جمهور الطلبة لمجزم عن فهم أو شرح معانيه . فالجمال أو الخير الذى تنشده فى الشعر هو الخير الذى فهمه كيتس وعبر عنه بقوله « أوه . لا تتمب وراء المعرفة فليس لدى شيء ؛ ومع ذلك فإن أغنيتي تأتى وطنية بحرارتها . لا تبحث وراء المعرفة فليس لدى شيء ، ولكن الماء بصفى » .

دعنا نحاول أن نقذف الشعر من أيدي المتحمسين الذين يمرضون على تلاييزهم شرحه وتفهم معانيه حتى تكون لنا دراسة